# المقدمة

الحمد لله الذي فجر ينابيع العلم والحكمة من صدور المؤمنين، والصلاة والسلام علي أشرف الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين وعلي آله وصحبه ومن أتبع سنته إلي يوم الدين .

**وبعد**

أتشرف بتقديم هذا المؤلف إلي أساتذتى الأفاضل وزملائي الأعزاء والأخوة القراء الكرام وأبنائي الطلاب ليشكل حلقة في سلسلة المؤلفات التي تعالج الجغرافية العامة والتي أعدها رواد عظام و أساتذة أجلاء مرموقين أناروا لنا الطريق في شتى المجالات الجغرافية .

وتزخر المكتبة الجغرافية بالعديد من المؤلفات العربية والأجنبية ولاغرابة في ذلك فقد بدأ الاهتمام بالجغرافيا والتي نشأت مع الحضارات القديمة فى كل من مصر والعراق والهند وبلاد فارس والصين، حيث نجد مصورات جغرافية أو أجزاء من خرائط، كما أن نقوش المعابد فى مصر تتسم بالتوجيه الجغرافى، فعند الإشارة إلى الجماعات والشعوب التى توجد جنوب مصر توجد هذه الإشارة فى جنوب اللوحة أو النقش أما الجماعات التى توجد فى شمال مصر فتوجد الإشارة إليهم فى شمال اللوحة أو النقش، كما توجد خريطة مصرية قديمة لأحد مناجم الصحراء الشرقية، وهى ترجع إلى العصر الفرعونى وتوجد محفوظة بمتحف تورين، وكذلك نجد بعض الخرائط لبابل القديمة فى العراق.

وأما الحضارة اليونانية فقد أنتج بعض مفكريها مؤلفات تدخل فى مجال الجغرافيا مثل هوميروس وهيرودوت وأفلاطون وأرسطو، وإلى جانب هؤلاء الأدباء والمؤرخين والفلاسفة فقد ظهر جغرافيون متخصصون من أمثال إراتوستين راسطرابون وبطليموس وقارنيوس، وقد استمر ذلك فى العصر الرومانى.

وفى الحضارة العربية ظهرت أسماء كثير من الجغرافيين المسلمين الذين تركوا تراثا جغرافيا ممتازاً، وفى البداية اعتمد المسلمون على ترجمة الجغرافيا اليونانية ثم ظهرت المؤلفات العربية الخالصة فى الجغرافيا على أيدى كل من الإدريسى وأين حوقل والإصطخرى وابن خرداذبة والمقدسى والهمذانى والبيرونى وابن بطوطه وابن خلدون.

وفى العصور الأوربية الوسيطة بدأ تطور الجغرافيا يفيد من حركة الكشوف الجغرافية، وبخاصة تلك التى قام بها كل من الأمير هنرى الملاح وفاسكوداجاما وماجلان وماركوبولو، ثم ظهر بعد ذلك صناع الخرائط مثل من مركاتور الذى ابتكر المسقط الذى ينسب إليه وأتى بعده جغرافيون

ورسامون فى الوقت نفسه مثل ريتر وهمبولت حيث ظهرت فى أعمالهما بعض الخرائط للعالم.

ويعتبر كل من الكساندر فون همبولت Alexander von Humboldt (١٧٦٩- ١٨٥٩) وكان ريتر Ritter (١٧٧٩ - ١٨٥٩) من رواد المدرسة الجغرافية الحديثة وخاصة فى ألمانيا، فقد بدأت الجغرافيا الحديثة على أيديهما فى الواقع، وبينما اهتم ريتر بدراسة الأقاليم والجغرافيا الإقليمية فإن همبولت قد اتجه إلى الجغرافيا الأصولية ونظر إلى العالم ككل وخاصة فى دراسته للأنماط المناخية والنباتية وتوزيعها على سطح الأرض، وقد سار أتباعهما وتلامذتهما على نهجهما خلال القرن التاسع عشر وإن ظل تأثيرهما حتى منتصف القرن العشرين.

أما الجغرافيا البشرية فقد تطورت خلال القرن التاسع عشر وخاصة بعد ظهور كتاب داروين " أصل الأنواع "، ولكن التطور الأكثر فعالية حدث على يد راتزل Ratzel الذى يعتبر مؤسس الجغرافيا البشرية وذلك من خلال كتابه Anthropogeographie الذى ربط فيه بين الظاهرات الطبيعية والبشرية.

ومن أهم إضافات راتزل فكرة الحتم البيئى Geographical Environmentalism
أو الحتمية Determinism وكذلك من خلال مناقشته لأثر البيئة على الإنسان، حيث يرى أن البيئة تؤثر على الإنسان فى كل مظاهر نشاطه وتقوم بتوجيهه.

وكان من أتباع راتزل فى مدرسة الحتم الجغرافى أو البيئى كل من ديمولان Demolins فى فرنسا الذى كتب فى مطلع القرن العشرين كتابه الذى يحمل عنوان Comment La Route a creé Le Type Sociale أو كيف أدى الطريق إلى خلق النمط الاجتماعى كما كانت الآنسة الين سمبل Ellen Semple من أهم تلاميذ راتزل فى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أسهم كل من ديمولان والمس سامبل فى تطور مفهوم الحتم البيئى، وكيف أن الإنسان لا يستطيع إلا أن يكون أسير بيئته التى تقدم له مع المشكلات حلولا، ولعل كتاب المس سامبل الذى يحمل عنوان تأثير البيئة الجغرافية يحمل فكرة الحتم البيئى بكل وضوح .

وتوجد مدرسة جغرافية أخرى تقابل المدرسة الحتمية وتناقضها وهى مدرسة الإمكانية أو الاحتمالية Possibilism التى ترى أن الإنسان ليس خاضعاً تماما لسيطرة البيئة، ولكنه يعدل من ظروفها بحيث تلائمه، ولقد كان من رواد هذه المدرسة فى الفكر الإنجليزى جريفت تايلور Griffith Taylor وفى المدرسة الفرنسية كل من لوسيان فيقر Lucien Febvre وفيدال دى لابلاش Visal de la Blache ومن رأى هؤلاء أن

الخصائص الحضارية والتنظيم الاجتماعى الذى يحدثه الإنسان يعمل على التأثير فى البيئة .

ويعد كتاب فيدال دى لابلاش عن الجغرافيا البشرية الذى ظهر فى عام ١٩٢١ أهم معالم هذا الاتجاه فهو يتضمن القول بأن تفسير كل عناصر النشاط البشرى يرتبط بالبيئة ويتأثر بها، لأن الجغرافيا علم العلاقات بين الأرض والإنسان وأن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به، فقد شق الإنسان الآنفاق فى الجبال وأنشأ شبكات الرى وطهر الطرق الملاحية وشق الترع بل إنه شق قنوات تصل بين البحار مثل قناة السويس، وحول مناطق المراعى الطبيعية إلى مزارع للقمح، وأنشأ السدود والقناطر والخزانات على الأنهار ونظم جريانها، والإنسان بذلك يعمل على تعديل سطح الأرض وإعادة تشكيله وإن كان ذلك بقدر محدود، إلا أنه يعدل البيئة بما يتفق مع حاجاته.

كما قام جان برون Jean Brunbes تلميذ لابلاش بتنظيم وتقسيم الأساس العلمى لمنهج الجغرافيا البشرية وفروعها وذكر منها الجغرافيا السياسية والجغرافيا الاجتماعية والجغرافيا الصحية، وظهرت جهود المدرسة الفرنسية هى موسوعة جغرافية ضخمة من ١٥ مجلداً عنوانها Géographie Universelle.

ومن أتباع المدرسة الاحتمالية ظهر فى بريطانيا فلير Fleure وفى الولايات المتحدة كارل ساور Carl Sauer وقد أثرت المدرسة الأمريكية فى ظهور عدد من المصطلحات التى شاع استخدامها فى المؤلفات الجغرافية مثل Physical or Natural Landscape أو المظهر الطبيعى ويشمل السطح والمناخ والتربة والنبات والموارد الطبيعية والأحوال المائية والبحار والمحيطات والسواحل، ويقابل ذلك عناصر البيئة البشرية أو الحضارية أو المظهر البشرى Cultural Landscape الذى يشمل أعمال الإنسان وآثاره ويتضمن دراسة السكان والعمران والإنتاج الاقتصادى والنقل والمواصلات والنشاط الذى أدى إلى ظهور الدول والوحدات السياسية.

ولقد كان منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هو الفترة الحاسمة في تطوّر علم الجغرافيا، وذلك عندما أخذ هذا العلم كل معناه بانتقال ميدان دراسته من مرحلة الوصف إلى مرحلة جديدة تتسم باستيعاب الحقائق المكانية وفهمها بظهور أفكار كل من هَمبولدت ورتر، فقد بدأت الجغرافيا الحديثة بكتاباتهما وأفكارهما، حيث لم تكن الجغرافيا قبلهما قد تحددت مفاهيمها أو اتضحت معالمها أو تحددت أهدافها.

ويعود السبب في اعتبار كتابات وأفكار كل من "همبولت" و"رتر" البداية الحقيقية للجغرافيا الحديثة التي أعطت لألمانيا الأسبقية في بلورة الأفكار الجغرافية وساعدت على نشوء اتجاهات جغرافية واضحة قامت

عليها مدارس فكريّة أسهمت في إنماء الفكر الجغرافي وإثرائه لا سيّما المدرسة الجغرافيّة الحتميّة (Déterminisme)، إلا أن جغرافيي القرنين السابقين على كل من "همبولت" و"رتر" لم يحاولوا وضع مفهوم جغرافي يتضح من خلاله هدف يحدد معالم الطريق لكل مشتغل بالحقل الجغرافي، بحيث يحمى هذا المفهوم ذلك المشتغل من الانزلاق إلى حقول تخصصات علميّة أخرى ويمكّنه من التخصّص في زاوية من زوايا العلم فيصبح عمله متميزا على غرار العلوم الأخرى .

ولكنّ الحقيقة والإنصاف يوجبان الاعتراف لكل من : "بيرنارد فيرانوس" و" إيمانويل كانت" بأنهما قد أسهما في التطور الفكري للجغرافيا، فقد حاول "فيرانوس" بناء إطار جديد لمفهوم العلم عندما عَرف الجغرافيا بأنها ذلك القسم من المعرفة الذي يتكون من مزيج من الرياضيات التي تمكننا من وصف الأرض وأقسامها بطريقة كمية، وبهذا يكون قد أنتقل بالعلم من مرحلة الوصف إلى المرحلة الكميّة، كما أنه قد وضع الأسس الصحيحة لعناصر الدراسة الجغرافية بالتفرقة بين منهجيّ بحثها : العام أو الأصولي (Systématique) والخاص أو الإقليمي(Régional)، أي الجغرافيا العامّة الأصوليّة والجغرافيا الإقليميّة.

يرى بعض الباحثين أن عصر الجغرافيا الحديثة بدأ في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي على يد العالم الألماني الكسندر فون همبولت الذي قام برحلات عديدة في كل من أمريكا الوسطى والجنوبية ووصف رحلاته في أربعين مجلداً، وبين في دراسته مدى العلاقة بين الإنسان وبيئته. وشاهدت الجغرافيا منذ القرن السابع عشر الميلادي انسلاخ عدد من موضوعاتها تحت أسماء مختلفة. ومن أوائل تلك الموضوعات علم الجيولوجيا وذلك في نهاية القرن السابع عشر، لكنها على الرغم من ذلك ظلت تمثل معيناً للجيومورفولوجيا، وكذلك انسلخ عن الجغرافيا علم المتيورولوجي Meteorology، وفي القرن التاسع عشر الميلادي استقل علم الاجتماع عن الجغرافيا، كما تبلورت علوم أخرى كثيرة مثل علم الاقتصاد.

وتستخدم الآن نظم المعلومات الجغرافية G.I.S فى كافة المجالات الجغرافية، وفى رسم نماذج خرائطية Models ما بين بسيطة ومعقدة، والأخيرة تعد بحق أحد ثمار استخدام أساليب التكنولوجيا الحديثة المستخدمة فى نظم المعلومات الجغرافية، وهذه النماذج المعقدة تقدم لنا خرائط موضوعية كمية Thematic Maps مشتقة من بيانات متنوعة ومعقدة ومختزنة فى الحاسب الآلي، هذه الخرائط تظهر لنا روابط عديدة كامنة بين العديد من الظواهر الجغرافية، وتتفاوت دقة الخرائط وفقاً لمدى وفرة البيانات المتاحة فى الحاسب الآلي.

كما أن استخدام النماذج موضوع مطروق الآن في عدد من فروع المعرفة الأخرى، ولا يزال ينبغي الشك في أنه كان ولا يزال مستخدماً في

الجغرافيا، على الأقل في بعض فروعها : كالجيومورفولوجيا والمناخ والسكان، بل يكفي أن نقول أن أول نموذج عرفه العالم كان الخريطة الصماء التي ظلت حتى الآن نموذجاً ساكن البنية متحرك الوظيفة .

ولا أدعي أنني أحطت بموضوعات المؤلف بشكل شامل، وإنما يشكل جهداً متواضعاً ومحاولة بسيطة أردت الإسهام بها في تبسيط بعض الحقائق التي تهم دراسي الجغرافيا بصفة عامة وأن يكون فيه فائدة للطلاب والباحثين، ولعلها تكون لبنة تكمل بعض الدراسات السابقة، أو تكون لبنه لدراسات تالية أكثر تفصيلاً، وحاولت جاهداً أن أعرض لبعض الدراسات الأصولية، والاستفادة من اتجاهات الفكر الجغرافي المعاصر كتطبيقات النماذج والنظريات في الجغرافية، الاستشعار عن بعد وتطبيقاته الجغرافية، تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية GIS المختلفة في التخطيط العمراني واستخدام الأرض ورسم الخرائط وغيره، نظام تحديد المواقع العالمي GPS، مع عرض لبعض الدراسات الجغرافية الحديثة والمعاصرة كجغرافية التذوق الجمالى، جغرافية التسويق، جغرافية الجريمة، جغرافية الانتخابات .

نسأل الله جل في علاه أن يجعله عملاً خالصاً لوجه الكريم .....ويرزقه القبول والنفع به ...

**﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾** صدق الله العظيم

**وعلي الله قصد السبيل**

الإسكندرية ١٨ جمادي الأول ١٤٣٥هـ

الموافق ١٩ مارس ٢٠١٤م .